مِنْ بَلَاغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

د. زِينَة جَلِيل عبد العُمَيْرِيّ

المُقَدِّمَةُ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ المُرسَلينَ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ الصَّادقِ الأمينِ، وعلى آلِهِ الطَّاهرينَ وصَحْبِهِ الأخيارِ كُلِّهِم أَجْمَعينَ، صَلاةً وَسَلامًا تامَّيْنِ إلَى يَومِ الدِّينِ.

أمَّا بَعْدُ،

تَزْخَرُ لُغَتُنَا العَرَبِيَّةُ بِمَظَاهِرِ الثَّرَاءِ المُتَنَوِّعَةِ؛ وَتَتَجَلَّى فِيهَا صُوَرٌ بَلَاغِيَّةٌ ذَاتُ إِبْدَاعٍ وَجَمَالٍ، تَمَيَّزَتْ بِهِ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، وَيَكْفِيهَا فَخْرًا أَنَّ رَبَّ النَّاسِ فَضَّلَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَآثَرَهَا؛ إِذْ أَنْزَلَ قُرْآنَهُ المَجِيدَ عَلَى خَيْرِ أَصْفِيَائِهِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ، وَتَعَهَّدَ بِحِفْظِهِ وَسَلَامَتِهِ، فَهُوَ كِتَابٌ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، كَرَّمَ بِهِ العَرَبَ، وَأَعْلَى لُغَتَهُم وَشَرَّفَهَا.

وَقَدْ تَنَاوَلْتُ –فِي بَحْثِي هَذَا- جَوَانِبَ مِنْ بَلَاغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِفَضْلِ اللهِ -تَعَالَى- وَمَنِّهِ، فِي رِحْلَةٍ مَاتِعَةٍ مَعَ آيَاتِ اللهِ (جَلَّ وَعَلَا)، فَانْتَقَيْتُ بَعْضًا مِنْ جَوَاهِرِهَا، جَاعِلَةً دِرَاسَتِي فِي ثَلَاثَةِ مَبَاحِثَ، أَوَّلُهَا فِي التَّشْبِيهِ، إِذْ عَرَضْتُ لِلتَّشْبِيهِ المُفْرَدِ المُفَصَّلِ، وَالتَّشْبِيهِ المُجْمَلِ، وَالتَّشْبِيهِ الضِّمْنِيِّ، وَالتَّشْبِيهِ المُرَكَّبِ التَّمْثِيلِيِّ، مَعَ التَّمْثِيلِ وَالتَّبْيِينِ.

أَمَّا المَبْحَثُ الثَّانِي، فَكَانَ فِي المَجَازِ، إِذْ قَسَّمْتُهُ عَلَى مَجَازِ اسْتِعَارَةٍ، وَمَجَازِ عَقْلِيٍّ، فَتَطَرَّقْتُ -فِي مَجَازِ الاسْتِعَارَةِ- إِلَى أَنْوَاعِ الاسْتِعَارَةِ: (التَّصْرِيحِيَّةِ، وَالمَكْنِيَّةِ، وَالتَّمْثِيلِيَّةِ)، مُمَثِّلَةً –لَهَا- بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، مَعَ الشَّرْحِ وَالتَّحْلِيلِ. ثُمَّ عَرَضْتُ إِلَى مَا وَرَدَ –فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ– مِنْ مَجَازٍ عَقْلِيٍّ بِالدَّرْسِ وَالتَّفْصِيلِ، مُبَيِّنَةً نَوْعَ التَّجَوُّزِ، وَالغَرَضِ البَلَاغِيِّ مِنْهُ.

وَكَانَ المَبْحَثُ الثَّالِثُ فِي الإِيْجَازِ وَالإِطْنَابِ، إِذْ تَمَيَّزَتْ لُغَتُنَا العَرَبِيَّةُ بِصُوَرٍ إِيْجَازِيَّةٍ بَلِيغَةٍ، يَعْلُوهَا –فِي ذَلِكَ- القُرْآنُ الكَرِيمُ؛ إِذْ تُؤَدَّى المَعَانِي الكَثِيرَةُ بِالأَلْفَاظِ القَلِيلَةِ، وَهُوَ مِنْ إِعْجَازِ هَذَا الكِتَابِ الخَالِدِ، وَعَظَمَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ. فَتَنَاوَلْتُ إِيْجَازَيِ القِصَرِ وَالحَذْفِ بِالتَّمْثِيلِ وَالعَرْضِ المُفَصَّلِ.

وَكَذَلِكَ بَرَزَ الإِطْنَابُ، مُتَمَثِّلًا بِإِطْنَابِ البَسْطِ وَإِطْنَابِ الزِّيَادَةِ؛ لِأَغْرَاضٍ بَلَاغِيَّةٍ كَثِيرَةٍ، حَفَلَ بِهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ، فَتَنَاوَلْتُهُ بِالتَّمْثِيلِ وَالشَّرْحِ وَالتَّحْلِيلِ.

وَقَدْ اتَّبَعْتُ –فِي هَذَا البَحْثِ- مَنْهَجًا تَحْلِيلِيًّا، وَقَدَّمْتُ –لِمَبَاحِثِهِ- بِمُقَدِّمَةٍ عَرَضْتُ –فِيهَا- أَهَمِّيَّةَ المَوْضُوعِ، وَخُطَّةَ البَحْثِ، وَأَلْحَقْتُهَا بِخَاتِمَةٍ ذَكَرْتُ –فِيهَا- أَهَمَّ النَّتَائِجِ المُتَوَصَّلِ إِلَيْهَا، ثُمَّ أَلْحَقْتُهَا بِقَائِمَةٍ بِجَرِيدَةِ مَصَادِرِ البَحْثِ.

المبحث الأول
التَّشْبِيهُ
التَّشْبِيهُ المُفَصَّلُ

التَّشْبِيهُ: فِي قَوْلِهِ – تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ((كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)) (القمر:٢٠) تَشْبِيهٌ مفردٌ، وهو تَشْبِيهٌ مفصَّلٌ؛ إذ ذُكِرَتْ فيه أَرْكَانُ التَّشبيهِ الأَرْبَعَةُ(١)، المُشَبَّهُ وهم قومُ عاد المُكَنَّى عنهم بالضّميرِ في (كأنَّهم)، وأداةُ التّشْبيهِ (كأنَّ)، والمشبهُ به (أعجازُ النّخلِ) ووجهُ الشّبهِ الانقعارُ، وَطَرَفَا التَّشْبِيهِ حِسِّيَّانِ(٢).

فَقَدْ شَبَّهَهُم المَوْلَى -جَلّ في عُلاهُ- في طُولِ قَامَتِهِم -حِينَ صَرَعَتْهُم الرّيحُ، وطرحَتْهُم عَلَى وجوهِهِم- بالنَّخلِ السّاقطِ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي ليس لها رؤوسٌ، وذلك أنَّ الرّيحَ قلعَتْ رؤوسَهُم أولًا، ثُمَّ كبَّتهُم عَلَى وجوهِهِم(٣).

وَوُصِفت أَعْجَازُ النّخلِ -وهي أصولُها وجذوعُها- بالمنقعرِ؛ لبيانِ وجهِ الشّبهِ، وهو أنَّ الرّيحَ صرعَتْهُم صرعًا تَفَلَّقَتْ منه بطونُهم، وتطايَرت أمعاؤُهم وأفئدتُهم، فصاروا جثثًا فرغًا، وهذا تفظيعٌ لحالِهِم، ومُثلةٌ لهُم؛ لِتَخْوِيفِ من يَرَاهُم(٤).

فَقَدْ كانَتْ الرّيحُ تقلعُهُم من الأَرْضِ فَتَرمي بِهِم عَلَى رؤوسِهِم، فَتَدُقُّ أعناقَهُم، وتَبينُ رؤوسَهم من أجسَادهم، وقيْلَ: تَنْزِعُ النّاسَ من بُيُوتِهِم، وقيْلَ: من قبورِهم؛ لأنَّهُم حفروا حُفَرًا ودخلُوها(٥).

ونَقَلَ الطّبريُّ أنَّه كان الرّجلُ من قوم عاد يتَّخذُ المصراعَين من حجارة، لو اجْتَمَعَ عليها خمسُمئة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يَحْمِلُوها، وإن كان الرّجلُ منهُم يَغمزُ قدمَه في الأَرْضِ، فتدخلُ فيها، وقَالَ: كأنَّهم أَعْجَازُ نخلٍ منقعر؛ لأنَّ رؤوسَهم كانت تبيْن من أجسامِهم، فتذهبُ رقابُهم وتبقى أجسامُهم(٦).

وقد ورد التّشْبيهُ المفردُ المفصَّل في وصف قوم عاد - أيضًا في قَوْلِه -تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ((فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))(الحَاقَّة:٧)، فأركانُ التّشْبيه الأربعةُ مذكورةٌ، المشبهُ (القوم) وقد كُنِّيَ عنهم بالضّمير، وأداةُ التّشْبيه (كأنَّ)، والمشبهُ به (أَعْجَازُ النّخلِ) ووجهُ الشّبه الخواءُ وخلوُّ الأجواف.

فقد شُبِّهوا بالنّخلِ الّتي صُرِعَت من أصولِها، وهو إخبارٌ عن عِظَم أجْسَامِهم، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ المُرَادُ بِه الأُصُولَ من دُونِ الجُذُوعِ؛ أيْ: إنَّ الرّيحَ قد قطعَتْهُم حَتّى صَارُوا كأُصُولِ النّخلِ، وقد وُصِفَت النّخلُ بالخاوية؛ لأنَّ الرّيحَ كانَتْ تَدخُلُ أجوافَهُم فَتَصْرَعُهُم كالنَّخْلَة الخاوية الجوف(٧).

وقَالَ ابنُ شَجَرَةَ: كَانَتِ الرِّيحُ تَدخُلُ في أفواهِهم، فَتُخْرِجُ ما في أجْوَافِهِم من الحَشْوِ من أدْبَارِهِم، فَصَارُوا كالنَّخلِ الخَاوِيَة، ويَرَى يحيى بنُ سلام أنَّ المُرَادَ من "خَاوِيَةٍ" أنَّ أبْدَانَهُم خَوَت من أرواحِهم، مثل النّخلِ الخاوية، ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: كأنَّهُم أَعْجَازُ نخلٍ خاويةٍ عن أصُولِها من البِقَاعِ؛ عَلَى نَحْوِ قَوْلِه- جَلَّ وَعَلا-: ((فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً))(النّمل:٥٢)، أي: خربةٌ لا سُكَّانَ فيها(٨).

وعجزُ النَّخْلَة أغلظُ النَّخْلَة وأشدُّها، إذ هُوَ السّاقُ المتّصلُ بالأَرْضِ منْهَا، وَوَجْهُ الشَّبَه في ذَلكَ أنَّ الَّذِيْنَ يَقْطَعُونَ النّخلَ إذا قَطَعُوهُ للانتفاعِ بأعوادِه في إقَامة البُيُوت للسَّقف والعضَادات انتقَوا منْهُ أصولَهُ؛ لأنَّهَا أغلظُ وأملأُ، وتركُوها عَلَى الأَرْضِ حَتّى تيبسَ، وتَزُولَ رُطُوبَتُهَا، ثُمَّ جَعَلُوهَا عمدًا وأساطين(٩).

وكُلُّ تَشْبيه منهُما يُلائم السياقَ الَّذِيْ وردَ فيه، ولا يَصلُحُ أَحَدُهُما في مكانِ الآخرِ؛ فالتَّشْبيهُ في سُورة القَمَر يُصَوِّرُ مَصْرَعَ القَوْم في بدايَة إرسالِ الرّيح ((إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ))(القمر:١٩)، فالرّيحُ تَنزِعُهُم وهُم يُقاوِمُونَ ويُعَانُونَ شدَّتَها، وأنَّى لهُمُ المُقاوَمَةُ؟ لقد أتَتْ عَلَيْهِم فَصَارُوا كَأَعْجَازِ النّخلِ المُنْقَعِر، أي: المُنقَلِعُ عن مغارسِه، الساقطُ عَلَى الأَرْضِ، فما زالت بِهِ قُوَّةٌ وصلابَةٌ.

أمَّا التّشْبيهُ في سُورة الحَاقَّة، فهو يُصَوِّرُ القومَ وقد سُخِّرَتْ عليهم الرّيحُ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حُسُومًا، فَصَارُوا عندَئذ كأَعْجَازِ النّخلِ الخَاوية، أي: الَّتِيْ خَلَتْ أجْوَافُهَا، فَصَارَت ضَعيفَةً باليَةً(١٠).

لا يَتَأَتَّى -هُنا في سُورة الحاقَّة- أنْ يُشَبَّهُوا بأَعْجَاز النّخل المنقعر؛ لأنّ هذا يتنافى مع وصف الرّيح بالعتوّ وقُوَّة العَصْف، ويتعارَضُ مَعَ ذِكْرِ مُدَّة التّسخير، في حين لا يَتَنَافَى -هُنَاكَ في سُورَة القَمَر- أنْ يُشبَّهُوا بأَعْجَازِ النّخلِ الخاوية؛ لأنَّ هذا يَتَنَاقضُ مَعَ كَوْنِ الإهلالِ في بداية الإرسال، ومَعَ مُقَاوَمَةِ القَوم للرِّيح ((إِنَّا أَرْسَلْنَا ... تَنزِعُ النّاسَ))(القمر:١٩-٢٠).

وهذا من دِقَّة التّعبيرِ القُرآنيِّ؛ إذ إنَّ استبدالَ كلمة بغيرها، أو حرف بآخر، يُغَيِّرُ المعنى، ويُؤَدِّي إلى الدّلالة غير المُرادَة. وهذا دليلٌ من دلائل إعجاز القُرآن(١١) ((وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً))(النساء:٨٢)، ويَظهَرُ الانسجَامُ في التّشْبيه في كلا المَوضعين، والتّلاؤمُ مع السّياقِ الَّذِيْ سِيقَ فيه، ويستَحيلُ وضعُ أحدِهما في موضعِ الآخرِ. معَ أنَّ كلا التّشْبيهين في وصف مصارعِ عادٍ قوم هود (١٢).

فقد سُخِّرَت الرّيحُ تَسْخيرًا مَقرُونًا بزمنٍ، فَصَارَت أجْوافُهُم كأَعْجَازِ النّخيلِ الَّذِيْ تَآكَلَتْ أَجْوَافُهُ، فصَارَتْ خَاوِيَةً. وهذا يَتَنَاسَبُ مَعَ تَسْخيرِ سَبْعِ ليالٍ وثَمَانِيَة أيَّام حُسُومًا، ومَعَ الأوصَافِ المَذكُورَة في السّورَة(١٣): (الحَاقَّة، والقَارِعَة، والطّاغيَة، والعَاتيَة، والأَخْذَة الرّابيَة، وطُغْيَانُ المَاء). فهذا التّجاوُزُ في الصّفات يُلائمُهُ الإبعَادُ في الإهلاكِ الَّذِيْ ذُكِرَ في السورَة الكَريمَة(١٤).

أمَّا التّشْبيهُ في سُورَة القَمَر فَلَيْسَ فيه هذا البُعْدُ في الإهلاك؛ وذلك لِيَتَلاءَمَ مَعَ مَا وُصِفَتْ بِه الرّيحُ، فهيَ ريحٌ صَرْصَرٌ أُرسِلَتْ عَلَيهِم، ولَمْ تُسَخَّرْ زَمَنًا طَويلًا مثلما ذُكِرَ هُناكَ؛ لذا اكتَفَى مَعَهَا باقتلاعِ النّخلِ وإسْقَاطِه عَلَى الأَرْض تَصْويرًا لإصرَاعِهم، وتَمْثيلًا لِصرَاعِهم(١٥).

التَّشْبيهُ المُجْمَلُ

وفي قَوْلِه -تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ((وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ))(يس:٣٩) تَشْبيهٌ بليغٌ لم يُذكَرْ فيه وجهُ الشّبه، فالقمرُ هُوَ المشبهُ،

والعُرْجُونُ هُوَ المشبهُ به، والكافُ أداةُ التّشْبيه، فالقمرُ سارٍ في منازله فإذا كان في آخرها دقَّ واستقوسَ وصغر حَتّى صار كالعُرْجُون القديم(١٦).

وَقَدْ قُيِّدَ العُرْجُونُ بالقدَم؛ لإبراز الغايَة من تَشْبيه القمر به، فالعُرْجُونُ هُوَ عُودُ العذْق ما بينَ شماريخه إلى مَنْبَته من النَّخْلَة، والقَديمُ هُوَ المُحَوَّلُ الَّذي مَضَى عليه حَوْلٌ، وإذا قَدِمَ العُرْجُونُ دَقَّ وانحَنَى واصْفَرَّ، فَشُبِّهَ القَمَرُ به من هذه الأوجُه الثّلاثة: الدّقَّةُ والآنحناءُ والاصفرارُ(١٧).

فقد جعل اللّه -جَلَّ وَعَلا- للشّمس ضوءًا يخُصُّها وللقمر نورًا يخصُّهُ، وفاوت بينَ سير هذه وهذا، فالشّمسُ تطلعُ كلَّ يوم وتغربُ في آخره عَلَى ضوءٍ واحد، ولكنّ تتنقلُ في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاءً، يطول بسبب ذلك النّهارُ ويقصُرُ اللّيلُ، ثُمَّ يطولُ اللّيلُ ويقصرُ النّهارُ، وجُعلَ سُلطانُها بالنّهار، فهي كوكبٌ نهاريٌّ، أمّا القمرُ فقدَّرَهُ منازلَ يطلعُ في أوّل ليلة من الشّهر ضئيلًا قليلَ النّور، ثُمَّ يزدادُ نورًا في اللّيلة الثّانية، ويرتفعُ منزلةً، وكلّما ارتفعَ ازدادَ ضياءً، وإن كان مقتبسًا من الشّمس حَتّى يتكاملَ نورُهُ في اللّيلة الرّابعة عشرة، ثُمَّ يشرعُ في النّقص إلى آخر الشّهر حَتّى يصيرَ كالعُرْجُون القديم(١٨)، وهو أصلُ العذْق، وقيلَ: هُوَ العذْقُ اليابسُ المنحني من النَّخْلَة(١٩).

التَّشْبيهُ الضِّمْنيُّ:

ونَجد التّشْبيهَ الضِّمْنيَّ في قَوْله -تَعَالَى-: ((أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا من كُلِّ الثَّمَرَات وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ))(البقرة: ٢٦٦)؛ ففي الآية الكريمة تَشْبيهُ رجُل غنيٍّ يَعْمَلُ بطَاعَة اللّه، ثُمَّ بَعَثَ اللّه -جَلَّ وَعَلا- له الشّيطانَ فَعَمِل في المَعَاصي حَتّى أحْرَقَ عَمَلَهُ، فإذا فَنِيَ عُمرُهُ واقتَرَبَ أجلُهُ خَتَمَ ذلك بعَمَل من أعْمَال الشَّقَاء(٢٠)، برجل غنيٍّ لهُ أموالٌ وجنّةٌ من نخيل وأعناب تجري فيها الأنْهَارُ، وقد كَثُرَت أشْجَارُهَا وتَنَوَّعَتْ ثمَارُهَا، حَتّى إذا كبُرَ وأصْبَحَ عاجزًا عن تكوين ثروة أُخْرَى فَقَدَ كُلَّ مَاله وَخَسرَ جَنَّتَهُ وأحرَقَهَا إعصارٌ، فَضَيَّعَ كلَّ شيء في شيبَته، وأصَابه الكبرُ، وَوَلَدُهُ وذُرِّيَّتُهُ ضعافٌ عندَ آخر عمره، ولم يكن له قوةٌ أنْ يغرسَ مثْلَهُنَّ، ولم يكُن عند نسله خَيْرٌ يَعُودُونَ به عَلَيْه، كَذَلكَ الكَافرُ يَومَ القيَامَة إذا رُدَّ إلى اللّه -تَبَارَكَ وتَعَالَى- ليسَ له خَيْرٌ فيستعتبُ، كما ليس لهذا قوةٌ فيغرسُ مثلَ بستانه، ولا يجدُهُ قَدَّمَ لنفسه خيرًا يعودُ عليه، كما لم يُغن عن هذا أولادُهُ، وحُرِمَ أجرَهُ عندَ أفقر ما كانَ عليه، كما حُرِمَ هذا جنةَ اللّه عندَ أفقر ما كانَ إليهَا عندَ كِبَره وضَعْف ذُرِّيَته(٢١). وهو تَشْبيهٌ ضِمْنيٌّ يُفْهَمُ بالعَقْل من السِّيَاق من دُون ذكْر لأركَان التَّشْبيه المَعْهُودُ إيرَادُهَا في جُلِّ أنْوَاع التَّشْبيه.

التَّشْبيهُ التَّمثيليُّ:

وَنَجِدُ التّشْبيهَ المركّبَ التّمثيليَّ في قَوْله -تَعَالَى-: ((مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللّه كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَة مائَةُ حَبَّة)) (البقرة :٢٦١)؛ إذ شُبِّهَت صُورَةٌ بصُورَة، وَوَجْهُ الشّبَه -في ذلك- صُورةٌ مُنْتَزَعَةٌ من أشياء مُتَعَدِّدَة. فَشُبِّهَ المُنْفقُ في سَبيل اللّه بالزارع، ومَا يُنْفَقُ بالبَذْرَة، والظَّفَرُ بجَزَاء الإنْفَاق يَومَ القيَامَة، بالظَّفَر بجَنْي الزَّرْع وَحَصَاده.

وفي الكَلام "إضْمَارٌ تَقْديرُهُ مَثَلُ صَدَقَات الَّذينَ يُنْفقُونَ أَمْوَالَهُمْ (كَمَثَل) زَارع (حَبَّة)"(٢٢)، فقد حَثَّ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- عَلَى الإنْفَاق في سَبيله، وَبَشَّرَ مَنْ أنْفَقَ -في سَبيله- بأنَّ في نَفَقَته أجْرٌ عَظيمٌ، فَشَبَّهَهُ بباذر حَبَّة بُورِكَ لَهُ في بَذْره، فَأخْرَجَتْ سَاقًا يَتَشَعَّبُ منْهُ سَبْعُ شُعَب، لكُلِّ وَاحد سُنْبُلَةٌ، وَهَذَا التَّمْثيلُ تَصْويرٌ للأضْعَاف، فكَأنَّهَا مَاثلَةٌ بَيْنَ عَيْنَي النَّاظر. وَالمُمَثَّلُ به مَوْجُودٌ في الدُّخْن وَالذُّرَّة، وغيرها من الحبوب(٢٣).

وَفي هَذَا المَثَل ما هو أبْلَغُ في النُّفُوس منْ ذكْر عَدَد السَّبْعمئَة، لأنَّه إشَارَةٌ إلَى أنَّ الأعْمَالَ الصَالحةَ يُنَمِّيهَا اللّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لأصْحَابهَا، مثلمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لمَنْ بَذَرَهُ في الأرْض الطَّيِّبَة(٢٤).

وهو تَشْبيهُ حَال جَزَائهمْ وَبَرَكَتهمْ، فَقَدْ شُبِّهَ حَالُ إعْطَاء النَّفَقَة وَمَا أُعْطُوهُ منَ الثَّوَاب بحَال حَبَّة بُذرَت في أرْض نَقيَّة وَتُرَاب طَيِّب، وَأَصَابَهَا الغَيْثُ فَأَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ، وَحُذفَ ذَلكَ كُلُّهُ إيجَازًا؛ لحُصُول العلم بأنَّ الْحَبَّةَ لَا تُنْبتُ ذَلكَ إلَّا كَذَلكَ، فَهُوَ منْ تَشْبيه المَعْقُول بالمَحْسُوس، وَالمُشَبَّهُ به هَيْأَةٌ مَعْلُومَةٌ، وَجُعلَ أَصْلُ التَّمْثيل في التَّضْعيف حَبًّا لأنَّ تَضْعيفَهَا منْ ذَاتهَا لَا بشَيْء يُزَادُ عَلَيْهَا(٢٥)، في مشهدٌ تَمْثيليٌّ يجمعُ صورًا ومواقفَ كثيرةً.

المبحث الثاني

المجاز

الاستعارةُ

"الاستعَارَةُ أنْ تُريدَ تَشْبيهَ الشَّيْء بالشَّيْء فَتَدَعَ أنْ تُفْصحَ بالتَّشْبيه وَتُظْهرَهُ،

وَتَجيءَ إلى اسم المُشَبَّه به فَتُعيرَهُ المُشَبَّهَ وَتُجريه عَلَيْه"(٢٦).

وَهِيَ أَنْ تُسْتَعَارَ الكَلِمَةُ من شَيْءٍ مَعْرُوف بهَا إلَى شَيْءٍ لَمْ يُعْرَفْ بهَا وَإنَّمَا يَكُونُ ذَلكَ لإظْهَار خَفيٍّ، أوْ لإيْضَاح ظَاهر لَيْسَ بجَليٍّ، أوْ لحُصُول المُبَالَغَة، أوْ لمَجْمُوع هَذه الأغْرَاض.

وَلَهَا ثَلاثَةُ أرْكَان، هِيَ: المُسْتَعَارُ،وهو لفظ المشبه به، والمُسْتَعَارُ منْهُ، وَهُوَ مَعْنَى اللَّفْظ المُشَبَّه، والمُسْتَعَارُ لَهُ، وَهُوَ المَعْنَى الجَامعُ، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ الاستعَارَاتُ في القُرْآن الكَريم، لأغْرَاض مُخْتَلفَة(٢٧).

١-الاستعارة التصريحية

وَهِيَ استعَارَةٌ يُصَرَّحُ فيْهَا بذكْر المُشَبَّه به منْ دُوْن المُشَبَّه، ومن وُرُوْدهَا في القُرآن الكَريم قَوْلُهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ((كتَابٌ أنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ لتُخْرجَ النَّاسَ منَ الظُّلُمَات إلَى النُّوْر))(إبراهيم:١)، فَفي لَفْظَي (الظُّلُمَات) و(النُّور)، استعَارَتَان؛ إذ استُعيْرَ الظَّلاَمُ للضَّلال والنُّورُ للهُدَى، وَلَمْ يَرِدْ ذكْرُ المُشَبَّهَيْن (الكُفْر والإيْمَان)، أيْ: هَذَا كتَابٌ أنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ القُرْآنُ العَظيمُ، أشْرَفُ الكُتُب وأعلاها، أنْزَلَهُ اللَّه -جل في علاه- منَ السَّمَاء، عَلَى أشْرَف رَسُول بَعَثَهُ اللَّهُ -تعالى- في الأرْض، إلَى جَميع أهْلهَا عَربهمْ وَعَجَمهمْ(٢٨)؛ لتَدْعُوَ به النَّاسَ وَتَهْديهم منْ ظُلُمَات الضَّلاَلَة وَالكُفْر والغَيِّ والجَهْل، إلَى الرُّشْد ونُور الإيْمَان والعلم وَضيَائهما، وَتُبَصِّرَ به أهْلَ الجَهْل وَالعَمَى سُبُلَ الرَّشَاد وَالهُدَى(٢٩).

"إذ إنَ الإيْمَان باللَّه نُورٌ يُشْرقُ في القَلْب، فَيُشْرقُ به هَذَا الكيَانُ البَشَريُّ، المُرَكَّبُ منَ الطِّينَة الغَليظَة وَمنْ نَفْخَة رُوح اللَّه. فَإذَا مَا خَلَا منْ إشْرَاق هَذه النَّفْخَة، وَإذَا مَا طُمسَتْ فيه هَذه الإشْرَاقَةُ اسْتَحَالَ طينَةً مُعْتمَةً . طينَةً منْ لَحْم وَدَم كَالبَهيمَة، فَاللَّحْمُ وَالدَّمُ وَحْدُهُمَا منْ جنْس طينَة الأرْض وَمَادَّتهَا. لَوْلا تلْكَ الإشْرَاقَةُ الَّتي تَنْتَفضُ فيه منْ رُوح اللَّه، يُرَقْرقُهَا الإيْمَانُ وَيَجْلُوهَا، وَيُطْلقُهَا تَشفُّ في هَذَا الكيَان المُعْتم، وَيَشفُّ بهَا هَذَا الكيَانُ المُعْتمُ... وَالإيْمَانُ باللَّه نُورٌ. نُورُ العَدْل. وَنُورُ الحُرِّيَّة. وَنُورُ المَعْرفَة. وَنُورُ الأُنْس بجوَار اللَّه، وَالاطْمئْنَان إلَى عَدْله وَرَحْمَته وَحكْمَته في السَّرَّاء وَالضَّرَّاء. ذَلكَ الاطْمئْنَانُ الَّذي يَسْتَتْبعُ الصَّبْرَ في الضَّرَّاء وَالشُّكْر في السَّرَّاء عَلَى نُور منْ إدْرَاك الحكْمَة في البَلاء"(٣٠).

فالكُفْرُ بمَنْزلَة الظُّلْمَة؛ وَالإسْلاَمَ بمَنْزلَة النُّور، عَلَى طَريقَة الاسْتعَارَة، وَقيلَ: إنَّ الظُّلْمَةَ مُسْتَعَارَةٌ للبدْعَة، وَالنُّورَ مُسْتَعَارٌ للسُّنَّة، وَقيلَ: منَ الشَّكِّ إلَى اليَقين، وَلاَ مَانعَ منْ إرَادَة جَميع هَذه الأُمُور؛ فَالمَعْنَى مُتَقَارِبٌ. و((بإذْن رَبِّهمْ))، أيْ: بتَوْفيقه إيَّاهُمْ وَلُطْفه بهمْ(٣١).

وَوَرَدَ مثْلُ ذَلكَ في قَوله -سُبْحَانَهُ-: ((اللَّه وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرجُهُم منَ الظُّلُمَات إلَى النُّور وَالَّذينَ كَفَرُوا أوْليَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرجُونَهُم منَ النُّور إلَى الظُّلُمَات أُولَئكَ أصْحَابُ النَّار هُمْ فيهَا خَالدُونَ))(البَقَرَة: ٢٥٧)، وقوله -تعالى-: ((هُوَ الَّذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْده آيَات بَيِّنَات ليُخْرجَكُمْ منَ الظُّلُمَات إلَى النُّور وَإنَّ اللَّه بكُمْ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ))(الحَديد:٩)، فَاسْتُعيْرَ الظَّلاَمُ للكُفْر، وَالنُّورُ للإيمَان، معَ عَدَم ذكْر المُسْتَعَار لَهُ، والاكتفَاء بالتصريح بالمستعار به.

٢- الاسْتعَارَة المَكْنيَّة:

تَتَمَثَّلُ الاسْتعَارَة المَكْنيَّةُ في قَوْله -تَبَارَكَ وتَعَالَى-: أعلى النموذج ((قَالَ رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ منِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا))(مريم:٤)؛ إذ شَبَّهَ الشَّيْبَ بشُوَاظ النَّار في بَيَاضه وَإنَارَته وَانْتشَاره في الشَّعر، وَتَفَشِّيه فيه وَتَمَكُّنه منْهُ، وَأخَذَه منْهُ كُلَّ مَأخَذ، باشْتعَال النَّار، ثُمَّ أخْرَجَهُ مَخْرَجَ الاسْتعَارَة بالكناية(٣٢)؛ فقد حَذَفَ المُشَبَّهَ به وَأدَاةَ التَّشْبيه، وَهَذه الاسْتعَارَة منْ أبْدَع الاسْتعَارَات وَأحْسَنهَا في كَلاَم العَرَب(٣٣). وقد أسْنَدَ الاشْتعَالَ إلَى مَكَان الشَّعَر وَمَنْبَته، وَهُوَ الرَّأْسُ، وَأخْرَجَ الشَّيْبَ تَمْييزًا مُحَوَّلا عَنِ الفَاعل، أيْ: انْتَشَرَ الشَّيْبُ في شَعَره كَمَا يَنْتَشرُ شُعَاعُ النَّار في الحَطَب، وَلَمْ يُضف الرَّأْسَ: اكْتفَاءً بعلْم المُخَاطَب أنَّهُ رَأْسُ زَكَريَّا؛ لذا فَصُحَتْ هَذه الجُمْلَةُ وَشُهدَ لَهَا بالبَلاَغَة(٣٤)، فكَان عُمُومُ الشَّيْب شَعْرَ رَأسه أوْ غَلَبَتُهُ عَلَيْه مُشَبَّهًا باشْتعَال النَّار في الفَحْم، بجَامع انْتشَار شَيْء لامع في جسْم أسْوَدَ. تَشْبيهًا مُرَكَّبًا تَمْثيليًّا قَابلاً لاعْتبَار التَّفْريق في التَّشْبيه. وَهُوَ أبْدَعُ أنْوَاع المُرَكَّب. فَشُبِّهَ الشَّعْرُ الأسْوَدُ بفَحْم، والشَّعْرُ الأبْيَضُ بنَار، عَلَى طَريق الاسْتعَارَة التَّمْثيليَّة المَكْنيَّة، وَرُمزَ إلَى الأمْرَيْن بفعْل (اشْتَعَلَ). وَأسْندَ الاشْتعَالَ إلَى الرَّأس. وَهُوَ مَكَانُ الشَّعْر الَّذي عَمَّهُ الشَّيْبُ؛ لأنَّ الرَّأسَ لا يَعُمُّهُ الشَّيْبُ إلَّا بَعْدَ أنْ يَعُمَّ اللِّحْيَةَ غَالبًا. فَعُمُومُ الشَّيْب في الرَّأس دليل التَّوَغُّل في كبَر السِّنِّ(٣٥).

وقد تُركَت الحَقيقَةُ في (شَابَ رَأسي) إلَى أبْلَغَ، وَهِيَ الاسْتعَارَة، فَحَصَلَ (اشْتَعَلَ شَيْبُ رَأسي) وَأبْلَغَ منْهُ: (اشْتَعَلَ رَأسي شَيْبًا)؛ لإسْنَاد الاشْتعَال إلَى مَكَان الشَّعَر

وَمَنْبَته، وَهُوَ الرَّأْسُ؛ لإفادَة شُمُول اشْتعَال الرَّأْسَ؛ لأنَّ فيه الإجْمَالَ وَالتَّفْصيلَ وقد عُرفَ في طَريق التَّمْييز وَأَبْلَغُ منْهُ: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ منِّي شَيْبًا)، وَأَبْلَغُ منْهُ: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) فَفيه اكْتفاءٌ بعلْم الْمُخَاطَب إنَّهُ رَأْسُ زَكَرِيَّا، بقَرينَة الْعَطْف عَلَى وَهَنَ الْعَظْم. ومثله قول القائل: (اشْتَعَلَ النَّارُ في بَيْتي)، وَالأبلغ: (اشْتَعَلَ بَيْتي نَارًا) (٣٦).

وَفي إسْنَاد الاشْتعَال إلَى الرَّأْس مَجَازٌ عَقْليٌّ؛ لأنَّ الاشْتعَالَ منْ صفَات النَّار الْمُشَبَّه بهَا الشَّيْبُ فَكَانَ الظَّاهرُ إسْنَادَهُ إلَى الشَّيْب. فَلَمَّا جيءَ باسْم الشَّيْب تَمْييزًا لنسْبَة الاشْتعَال، تعين بذَلكَ إرادة خُصُوصيَّة الْمَجَاز، وَخُصُوصيَّةُ التَّفْضيل بَعْدَ الاحْتمَال. فضلًا عن إفَادَة تَنْكير الشيب منَ التَّعْظيم، فَحَصَلَ إيجَازٌ بَديعٌ. وَأَصْلُ النَّظْم الْمُعْتَاد : وَاشْتَعَلَ الشَّيْبُ في شَعْر الرَّأْس(٣٧).

وَإنَّمَا كَانَ ذَلكَ الوَصْفُ -منْ حَاله؛ لبيان مَا تَشْتَدُّ مَعَهُ الْحَاجَةُ إلَى الْوَلَد حَالًا وَمَآلًا- تَمْهيدًا لسؤاله الولد؛ فَلَيْسَ سُؤَالُهُ سُؤَالَ تَوَسُّع لمُجَرَّد تَمَتُّع أَوْ فَخْر. فَكَانَ وَهَنُ الْعَظْمُ وَعُمُومُ الشَّيْب حَالًا مُقْتَضيًا للاسْتعَانَة بالْوَلَد، فضلا عمَّا يَقْتَضيه منِ اقْتراب إبَّانَ الْمَوْت عَادَةً؛ وهو ما يضْطره إلى سُؤَال الْوَلَد . وَاللَّهُ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ . وَخَبَرًا هنة العظم ومشيب الرأس مُسْتَعْمَلَان مَجَازًا في لَازم الإخْبَار، وَهُوَ الاسْترْحَامُ؛ لأنَّ الْمُخْبَرَ عَالمٌ بهمَا(٣٨).

وقد وُصفَ -جَلَّ في عُلاهُ- بالرَّحْمَة الْوَاسعَة وَالْعلْم الْوَاسع، بأُسْلُوب التَّمْييز الْمُحَوَّل عَنِ النِّسْبَة؛ على سبيل الْمُبَالَغَة، بإسْنَاد السَّعَة إلَى الذَّات ظَاهرًا حَتَّى كَأَنَّ ذَاتَهُ هيَ الَّتي وَسعَتْ، وَذَلكَ في دُعَاء الْمَلَائكَة للمُؤْمنينَ الوَارد في قَوْله -تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ((رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا))(غافر: ٧)، فتَعَالَى اللَّه -جَلَّ وَعَلا- وَتَنَزَّهَ عَنِ الْمَكَان، فَلَيسَ هو -سُبْحَانَهُ- من وَسعَ كُلَّ شَيْء، وإنَّمَا الرَّحْمَةُ وَالْعلْمُ هُمَا اللَّذَان وَسعَا كُلَّ شَيْء في الْمَعْنَى. وَالأَصْلُ: وَسعَ كُلَّ شَيْء رَحْمَتُكَ وَعلْمُكَ، وَلَكنْ جُوِّزَ الْكَلَامُ عَنْ أَصْله بأَنْ أُسْنَدَ الْفعْلَ إلَى صَاحب الرَّحْمَة وَالْعلْم، ونُصبَا عَلَى التَّمْييز للإغْرَاق في وَصْفه بالرَّحْمَة وَالْعلْم، كَأَنَّ ذَاتَهُ العليّة رَحْمَةٌ وَعلْمٌ وَاسعَان كُلَّ شَيْء(٣٩).

وهو إجْمَالٌ يَسْتَشْرفُ به السَّامعُ إلَى مَا يَردُ بَعْدَهُ، فَيَرد -بَعْدَهُ- التَّمْييزُ الْمُبَيِّنُ لنسْبَة السَّعَة، أَنَّهَا منْ جَانب الرَّحْمَة وَجَانب الْعلْم، وَهيَ فَائدَةُ تَمْييز النِّسْبَة في كَلَام الْعَرَب، لأَنَّ للتَّفْصيل بَعْدَ الإجْمَال تَمْكينًا للصِّفَة في النَّفْس، مثْلَمَا وَرَدَ في قَوْله -تَعَالَى-: ((وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)) (مريم:٤)، وَالْمُرَادُ أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالْعلْمَ وَسعَا كُلَّ مَوْجُود، الآنَ، أَيْ: في الدُّنْيَا، وَذَلكَ هُوَ سيَاقُ الدُّعَاء، فَمَا منْ مَوْجُود في الدُّنْيَا إلَّا وَقَدْ نَالَتْهُ قسْمَةٌ منْ رَحْمَة اللَّه -تَعَالَى- سَوَاءٌ في ذَلكَ الْمُؤْمنُ وَالْكَافرُ وَالإنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ(٤٠).

وَتَتَجَلَّى الاسْتعَارَةُ الْمَكْنيَّةُ في تَصْوير غَضَب مُوسَى (عَلَيْه السَّلَامُ)، وَوَصْفه بالسُّكُوت في قَوْله جَلَّ منْ قَائل-: ((وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ)) (الأعراف:١٥٤)، على أحَد قَوْلَيْن في هذا الْمَجَاز. فَشَبَّهَ الغَضَبَ برَجُل، وَحَذَفَ الْمُشَبَّهَ به مَعَ ذكْر لازمَة منْ لَوَازمه، وَهيَ صفَةُ السُّكُوت، فَيَرَى الزَّمَخْشَريُّ: أَنَّ الْغَضَبَ -هنا- كَأَنَّهُ رَجُلٌ تَمَكَّنَ منْهُ، وأغْرَاهُ عَلَى مَا فَعَلَ، وقال لَهُ: قُلْ لقَوْمكَ كَذَا، وَأَلْقَ الْأَلْوَاحَ، وَجُرَّ برَأْس أَخيكَ إلَيْكَ، فَتَرَكَ النُّطْقَ بذَلكَ، وَقَطَعَ الإغْرَاءَ، وهذا منْ قَبيل شُعَب الْبَلاغَة(٤١). وهذه اسْتعَارَة بَديعَةٌ (٤٢) فـ"السُّكُوتُ -في أَصْل اللُّغَة- تَرْكُ الْكَلَام، فَهُوَ -هُنَا- مَجَازُ تَشْبيه، أَوْ تَمْثيل مَبْنيٌّ عَلَى تَصْوير الْغَضَب بشَخْص ذي قُوَّة وَرياسَة يَأْمُرُ وَيَنْهَى فَيُطَاعُ"(٤٣).

وَقد حَسَّنَ هَذَا التَّشْبيهُ؛ إذ إنَّ الْغَضْبَانَ يَجيشُ في نَفْسه حَديثٌ للنَّفْس يَدْفَعُهُ إلَى أَفْعَال يُطْفئُ بهَا ثَوَرَانَ غَضَبه، فَإذَا سَكَنَ غَضَبُهُ وَهَدَأَتْ نَفْسُهُ كَانَ ذَلكَ بمَنْزلَة سُكُوت الْمُغْري؛ لذا أُطْلقَ عَلَيْه السُّكُوتُ، تَشْبيهًا بالنَّاطق عَلَى طَريقَة الْمَكْنيَّة، فَاجْتَمَعَ اسْتعَارَتَان، أَوْ هُوَ اسْتعَارَة تَمْثيليَّةٌ مَكْنيَّةٌ؛ لأَنَّهُ لَمْ تُذْكَر الْهَيْئَةُ الْمُشَبَّهُ بهَا، وَرُمزَ إلَيْهَا بذكْر شَيْء منْ رَوَادفهَا، وَهُوَ السُّكُوتُ، وَفي هَذَا مَا يُؤَيِّدُ أَنَّ إلْقَاءَ الْأَلْوَاحِ كَانَ أَثَرًا للْغَضَب(٤٤) .

٣- الاسْتعَارَة التَّمْثيليَّةُ :

وَهُوَ هُنَا اسْتعَارَة بَديعَةٌ(٤٥) فَفي قَوْله -جَلَّ وَعَلا-: ((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا))(آل عمران:١٠٣) تَمْثيلٌ لهَيْئَة اجْتمَاع الْمؤمنين وَالْتفَافهمْ عَلَى دين اللَّه وَالتمسك بوَصَايَاهُ وَحفظ عُهُوده بهَيْئَة اسْتمْسَاك جَمَاعَة بحَبْل قد أُلْقيَ إلَيْهمْ ؛ لينقذهمْ منْ غَرَق أَوْ سُقُوط وقد أمنوا انقطاعه(٤٦)، والْمُرَادُ بحَبْل اللَّه -سُبْحَانَهُ- عَهْدُهُ(٤٧). وهو لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ، وَأَصْلُهُ في اللُّغَة السَّبَبُ الَّذي يُتَوَصَّلُ به إلَى الْبُغْيَة، وَفي إضَافَةُ الْحَبْل إلَى اللَّه -سُبْحَانَهُ- قَرينَةُ هَذَا التَّمْثيل. وَ(جَميعًا) حَالٌ، وَهُوَ الَّذي رَجَّحَ إرَادَةَ التَّمْثيل؛ إذْ لَيْسَ الْمَقْصُودُ الأَمْرَ باعْتصَام كُلِّ مُسْلم -مُنْفردًا- اعْتصَامًا بهَذَا الدِّين، بَلْ الْمَقْصُودُ الأَمْرُ باعْتصَام الأُمَّة مجتمعة؛

إذ أَمَرَهُمْ –سُبْحَانَهُ وتَعَالَى– بِأَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ بِالْقُرْآنِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ والاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ، وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ الْمُنَاسِبُ لِتَمَامِ الْبَلَاغَةِ؛ لِكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي (٤٨).

وَيُجَوِّزُ الزَّمَخْشَرِيُّ وابنُ عَاشور أَنْ يُسْتَعَارَ الاعْتِصَامُ لِلتَّوَثِيقِ بِالدِّينِ وَعُهُودِه، وَعَدَمِ الانْفِصَالِ عَنْهُ، وَيُسْتَعَارَ الْحَبْلُ لِلدِّينِ وَالْعُهُودِ، وَالْمَعْنَى: وَاجْتَمِعُوا عَلَى اسْتِعَانَتِكُمْ بِاللَّهِ وَوُثُوقِكُمْ بِهِ وَلَا تَفَرَّقُوا عَنْهُ، أَوْ وَاجْتَمِعُوا عَلَى التَّمَسُّكِ بِعَهْدِهِ إِلَى عِبَادِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ، أَوْ بِكِتَابِهِ، وَفِي هَذَا الْوَجْهِ لَا يَكُونُ الْكَلَامُ صَرِيحًا فِي الْأَمْرِ بِالاجْتِمَاعِ عَلَى الدِّينِ بَلْ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ أَمْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ، وَيَصِيرُ قَوْلُهُ جَمِيعًا مُحْتَمِلًا لِتَأْكِيدِ الْعُمُومِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ وَاوِ الْجَمَاعَةِ .وقد أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ أَنْفُسِهِمْ لِأُخْرَاهُم، بِأَمْرِهِم بِمَا فِيهِ صَلَاحُ حَالِهِمْ فِي دُنْيَاهُم، وَذَلِكَ بِالاجْتِمَاعِ على هذا الدِّين، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ؛ ليكتسبوا بِاتِّحَادِهِم قُوَّةً وَنَمَاءً(٤٩).

المَجَازُ العَقلِيُّ

"هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْمَجَازِ عَلَى حدَّته، كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ البَلاغَة، ومادةُ الشَّاعِر المفلق، والكاتب البَلِيغ فِي الإبداعِ والإحسَانِ، والاتِّساعِ فِي طُرُقِ البَيَانِ"(٥٠)، وَتَتَجَلَّى –فِيهِ– فِطْنَةُ العَرَبِيِّ، وَحَذَاقَتُهُ، وَسَلَامَةُ ذَوْقِه، فَيُسْنَدُ الفِعْلُ أَوِ الوَصْفُ إِلَى غَيْرِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ الحَقِيقِيِّ، لِغَايَةٍ بَلَاغِيَّةٍ فِي الكَلَامِ، وَقَدْ حَفِلَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالمَجَازَاتِ العَقْلِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ، مِنْهَا قَوْلُهُ –سُبْحَانَهُ–: ((مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ)) (الأنعام:١٤١)، وإِنَّمَا هي معروشٌ فيها، والمعروشُ أشجارُها، وغيرُ المَعْرُوشَاتِ المُبْقَاةُ كرومُها مُنبَسطةٌ عَلَى وَجْه الأَرْض أو أرفعَ بقليل، ومن محاسِنِهَا أَنَّها تُزيِّنُ وجهَ الأَرْضِ فيَرَى الرّائي جَمِيعَها أخضرَ، ووجهُ المجازِ العقليِّ وصفُ الجنَّات بأَنَّها مَعْرُوشَاتٍ والمعرُوشُ أشجارُها، وفِي ذلك إسنادُ الفعل إلى ما لا يصلحُ(٥١).

ومِنْهَا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ((وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا))(يوسف:٨٢)؛ إِذْ لا يَصِحُّ سُؤَالُ القَرْيَة أراضيَهَا وبُيُوتِهَا وَأَشْجَارِهَا؛ لأنَّها لن تُجيبَ، وإِنَّمَا المُرَادُ: وَاسْأَلْ أَهْلَهَا، وقد حُذِفَ المُضَافُ، وَبَقِيَ المُضَافُ إِلَيه (٥٢). وَالقَوْلُ فِي الْعِيرِ كَالْقَوْلِ فِي الْقَرْيَةِ فهما سَوَاءٌ فِي التَّجَوُّزِ(٥٣). وَهِيَ القَافِلَةُ الَّتِي كانوا فِيهَا، وأَقْبَلُوا مَعَهَا(٥٤). وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ، وَإِنْ كَانَتْ جَمَادًا. فَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَسَوْفَ يُنْطِقُ الْجَمَادَ لَكَ؛ وَعَلَى هَذَا فَلَا مَجَازَ وَلَا إِضْمَارَ فِي القَوْلِ(٥٥).

وَيذْهَبُ فَرِيقٌ من عُلَمَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إلى أَنَّ)حِجَابًا مَّسْتُورًا (بمعنى: حِجَابًا سَاتِرًا فِي قَوْلِه –جَلَّ وَعَلا–: ((وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا))(الإسراء:٤٥)، وَلَكِنَّهُ أُخْرِجَ وَهُوَ فَاعِلٌ فِي لَفْظِ الْمَفْعُولِ، نحوقول القائل: إِنَّكَ مَشْئُومٌ عَلَيْنَا وَمَيْمُونٌ، وَإِنَّمَا هُوَ شَائِمٌ وَيَامِنٌ، لِأَنَّهُ مِنْ شُؤمِهِمْ وَيُمْنِهِمْ. قَالَ: وَالْحِجَابُ –هُنَا– السَّاتِرُ، وَقِيلَ: مَعْنَى (مَسْتُورًا) ذَا سِتْرٍ، نحو قَوْلِهِمْ سَيْلٌ مُفْعَمٌ، أَيْ: ذُو إِفْعَامٍ(٥٦).

أي: جَعَلْنَا بَيْنَكَ –يَا مُحَمَّدُ– وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا، فبسبب إِعْرَاضِهِمْ عَنْ قِرَاءَتِكَ وَتَغَافُلِهِمْ عَنْكَ يَمُرُّونَ بِكَ وَلَا يَرَوْنَكَ كَمَنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَمَعْنَى (مَسْتُورًا) سَاتِرٌ(٥٧).

وَحَقِيقَةُ الْحِجَابِ: السِّتَارُ الَّذِي يَحْجُبُ الْبَصَرَ عَنْ رُؤْيَةِ مَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ هُنَا –على سبيل المجاز– "للصِّرْفَةِ الَّتِي يَصْرِفُ اللَّه بِهَا أَعْدَاءَ النَّبِي –صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنِ الْإِضْرَارِ بِه؛ لِلْإِعْرَاضِ الَّذِي يُعْرِضُونَ بِهِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِه، وَقد جَعَلَ اللَّهُ الْحِجَابَ الْمَذْكُورَ إِيجَادَ ذَلِكَ الصَّارِفِ فِي نُفُوسِهِمْ، إِذ يَهُمُّونَ وَلَا يَفْعَلُونَ، مِنْ خَوَرِ الْإِرَادَةِ وَالْعَزِيمَةِ فَيَخْطُرُ الْخَاطِرُ فِي نُفُوسِهِمْ، ثُمَّ لَا يُصَمِّمُونَ، وَتَخْطُرُ مَعَانِي الْقُرْآنِ فِي أَسْمَاعِهِمْ ثُمَّ لَا يَتَفَهَّمُونَ، وَذَلِكَ خُلُقٌ يَسْرِي إِلَى النُّفُوسِ تَدْرِيجِيًّا تَغْرِسُهُ فِي النُّفُوسِ بَادِئَ الْأَمْرِ شَهْوَةُ الْإِعْرَاضِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَسْمُوعِ مِنْهُ ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ مِلْكًا فِي النَّفْسِ لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْعِه وَلَا تُغَيِّرُهُ. وَفِي وَصْفِ الْحِجَابِ بِالْمَسْتُورِ مُبَالَغَةٌ فِي حَقِيقَةِ جِنْسِه، أَيْ: حِجَابٌ بَالِغٌ الْغَايَةَ فِي حَجْبِ مَا يَحْجُبُهُ هُوَ، حَتَّى كَأَنَّهُ مَسْتُورٌ بِسَاتِرٍ آخَرَ، فَذَلِكَ فِي قُوَّةِ أَنْ يُقَالَ: جَعَلْنَا حِجَابًا فَوْقَ حِجَابٍ(٥٨).

وذهب فريق آخر مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ إلى أَنَّ الْمَعْنَى: حِجَابًا مَسْتُورًا عَنِ الْعِبَادِ، لَا تَرَاهُ الْأَعْيُنُ؛ فَهُوَ مَسْتُورٌ عَنْهَا ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: أَنَّ لِلَّه سِتْرًا عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ فَلَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُهُمْ، (٥٩). "وَقِيلَ: حِجَابٌ مِنْ دُونِه حِجَابٌ فَهُوَ مَسْتُورٌ بِغَيْرِه، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحِجَابِ الْمَسْتُورِ الطَّبْعُ وَالْخَتْمُ"(٦٠).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
الإِطْنَابُ وَالإِيْجَازُ

الإِطْنَابُ:

١- إِطنَابُ البَسْطِ:

ذَكَرَ نَبِيُّ اللَّه –تَعَالَى– موسى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ الْمَنَافِعَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْعَصَا، فِي قَوْلِهِ –تَبَارَكَ

وتَعَالَى-: ((قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى))(طه: ١٨)، فَفَصَّلَ، ثُمَّ أَجْمَلَ؛ لِيَنْظُرَ مِقْدَارَ اقْتِنَاعِ السَّائِلِ، حَتَّى إِذَا اسْتَزَادَهُ بَيَانًا زَادَهُ(٦٢).

وللْمُفَسِّرِينَ أَقْوَالٌ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الإِطْنَابِ، مِنْهَا: قَوْلُهُم: إِنَّمَا سَأَلَهُ لِيَبْسُطَ مِنْهُ وَيُقَلِّلَ هَيْبَتَهُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا أَجْمَلَ مُوسَى؛ لِيَسْأَلَهُ عَنْ تِلْكَ المَآرِبِ، فَيَزِيدَ فِي إِكْرَامِهِ، وَقِيلَ: انْقَطَعَ لِسَانُهُ بِالْهَيْبَةِ فَأَجْمَلَ.

وفِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)) (غافر:٧) ذُكِرَت صفة الإِيمَان لحَمَلَة العَرْش، ولا يَخْفَى عَلَى أَحَد أَنَّهُم مُؤْمِنُونَ، فَتَسْبِيحُهُمْ إِيَّاهُ يَتَضَمَّنُ الإِيمَانَ(٦٣)؛ وذلك لإِظْهَارِ شَرَفِ الإِيمَانِ وَفَضْلِه، وَالتَّرْغِيبِ فيه، مثلما وُصِفَ الأَنْبِيَاءُ -فِي مَوَاضِعَ كثيرة مِنَ القرآن- بالصَّلَاحِ لِذَلِكَ، فَبَيَّنَ -سُبْحَانَهُ- بِذَلِكَ فَضْلَ الإِيمَانِ، وَفِيه تَعْرِيضٌ بالْمُشْرِكِينَ أَنَّهم لَمْ يَكُونُوا مِثْلَ أَشْرَفِ أَجْنَاسِ المَخْلُوقَات(٦٤)، نحو قَوْلِه -تَعَالَى- فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ: ((وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) (البقرة:١٣٥). "وهوَ تَوْطِئَةٌ وَتَمْهِيدٌ لِلإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَذَلِكَ هُوَ المَقْصُودُ مِنَ الخَبَرِ، فَقَدَّمَ لَهُ مَا فِيهِ تَحْقِيقُ اسْتِجَابَةِ اسْتِغْفَارِهِمْ لِصُدُورِهِ مِمَّنْ دَأْبُهُمُ التَّسْبِيحُ وَصِفَتُهُمُ الإِيمَانُ"(٦٥).

كَأَنَّهُ قِيلَ: (وَيُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ). وهو تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الاشْتِرَاكَ فِي الإِيمَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَدْعَى شَيْءٍ إِلَى النَّصِيحَةِ، وَأَبْعَثُهُ عَلَى إِمْحَاضِ الشَّفَقَةِ، على الرغم من تَفَاوُتِ الأَجْنَاسِ، وَتَبَاعُدِ الأَمَاكِنِ. فَإِنَّهُ لَا تَجَالُسَ بَيْنَ مَلَكٍ وَإِنْسَانٍ، وَلَا بَيْنَ سَمَاوِيٍّ وَأَرْضِيٍّ قَطُّ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الإِيمَانُ جَاءَ مَعَهُ التَّجَانُسُ الْكُلِّيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَقِيقِيُّ، حَتَّى اسْتَغْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ لِمَنْ فَوْقَ الأَرْضِ(٦٦). قَالَ اللَّه -تَعَالَى-: ((وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ)) (الشورى: ٥).

٢- إِطْنَابُ الزِّيَادَة:

أ- ذِكْرُ الخَاصِّ بَعْدَ العَامِّ: ذَكَرَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- الفَاكِهَةَ، ثُمَّ أفردَ النَّخلَ؛ لشَرَفِه ومَزيدِ فَائدته عَلَى سائرِ الفَوَاكه(٦٧)، فِي قَوْلِه -جَلَّ وَعَلا-: ((فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)) (الرّحمن:١١)، فالمُرادُ بـ"فيها فَاكِهَة" أنَّها مُختلفةُ الألوانِ والطّعُوم والرّوائح، و((وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)) أفردَهُ بالذّكرِ؛ لشرفِه ونفعِه رطبًا ويابسًا(٦٨).

وقد اختُلِفَ فِي المعنَى الَّذِي من أجلِه أُعيدَ ذِكْرُ النّخلِ والرّمَّانِ بعدَ ذكرِ الفَاكِهَة فِي قَوْلِه -تَعَالَى-: ((فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ))(الرّحمن:٦٨)، فذهَبَ بعضُهُم إلى أنَّ النّخلَ والرّمَّانَ ليسا من الفَاكِهَة(٦٩)؛ لأنَّ الشّيءَ لا يُعطفُ عَلَى نفسه، وقَالَ آخرُونَ: هُما من الفَاكِهَة، لأنَّ العَرَبَ تجعلُهُمَا من الفَاكِهَة، وإنَّمَا أُعيدَ ذكرُهُما بعدَ أنْ ذُكِرَت الفَاكِهَةُ ترغيبًا لأهلِ الجَنَّة، وقِيلَ: أُفردَا بالذّكرِ؛ لأنَّ النّخلَ ثَمَرُهُ فَاكِهَةٌ وطَعَامٌ، والرّمَّانُ فَاكِهَةٌ ودواءٌ، فلم يَخْلُصَا للتَّفَكُّه

ومثلُ ذلكَ قولُهُ -جَلَّ وَعَلا-: ((حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى))(البقرة: ٢٣٨)، فقد أمَرَهُمْ بالمُحافظة عَلَى كُلِّ صلاة، ثُمَّ أعَادَ العَصْرَ تشديدًا لها(٧٠). ومثلُهُ قولُهُ -تَعَالَى-:

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ)) (الحجّ:١٨)، ثُمَّ قولُهُ -تَعَالَى- بعدَها: ((وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)) (الحجّ:١٨)، وقد ذَكَرَهُم في أوَّلِ الكلمة(٧١) في قَوْلِه سُبْحَانَهُ-: ((مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ)). ومثلُهُ -كذلك- قولُهُ - تَعَالَى-: ((مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ)) (البقرة:٩٨)؛ إذ أُفْرِدَ ذِكْرُ جِبْرِيْلَ بَعْدَ أنْ ضُمِّنَ بذِكْرِ الملائكة.

ب- ذِكْرُ العَامِّ بَعْدَ الخَاصِّ: ومِنْ ذِكْرِ الْخَاصِّ ثُمَّ العامِّ ما نَلحَظُ في قَوْلِه - تَعَالَى-: ((يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ)) (النّحل:١١)، فقد خَصَّصَ -سُبْحَانَهُ- ذكرَ الزّيتونِ والنّخيلِ والأعنابِ بذواتِهَا، ثُمَّ أجْمَلَ ذِكْرَها بقَوْلِه: ((كُلِّ الثَّمَرَاتِ))، فهذا تكرارٌ لِذِكْرِهَا؛ لأنَّهَا مشمولةٌ بالتّعميم.

ومثل ذلك قوله - تَبَارَكَ وتَعَالَى-: ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ)) (المؤمنون: ١٩-٢٠). فَقَدْ خَصَّصَ اللّه -سُبْحَانَهُ- النّخلَ والأعنابَ والزّيتونَ وذكرَهَا ضمنًا بقَوْلِه: ((فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ))، فَلَمَّا ذَكَرَ اللّهُ -جَلَّتْ قُدرَتُه- نِعْمَةَ المَاءِ ذَكَرَ ما يَنشأُ عنه فقَالَ: ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ)) وقد خصَّ هذه الأنواعَ الثّلاثةَ من النّخلِ والعنَبِ والزّيتُونِ؛ لأنَّهَا أكرمُ الشّجَرِ وأجْمَعُهَا للمنافعِ(٧٢).

فقد قَدَّمَ الزّرعَ لأنَّهُ أفضلُ الأغذيَةِ الّتِي يَعيشُ بها النّاسُ، وأتْبَعَهُ بالزّيتُونِ؛ لأنَّهُ فاكِهَةٌ من وجه، وإدامٌ من وجه؛ لكَثْرةِ ما فيه من الدّهْنِ، ثُمَّ ذَكَرَ النّخيلَ؛ لأنَّهُ غذاءٌ وفَاكِهَةٌ، وهو مَعَ العِنَبِ أشْرَفُ الفَوَاكِه، وجَمَعَ الأعنابَ؛ لاشتمالِهَا عَلَى الأصْنَافِ المُختَلِفَة، ثُمَّ أشارَ إلى سائرِ الثّمرَاتِ(٧٣) بقَوْلِه: ((ومِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)).

وَمِن ذِكْرِ العَامّ بَعْدَ الخَاصّ قَوْلُهُ - تَعَالَى- عَلَى لِسَانِ نُوح -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ((رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)) (نوح:٢٨)؛ فالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ عَامٌّ في كُلِّ مَنْ آمَنَ باللَّه -تَعَالَى- وَصَدَّقَ الرُّسُلَ(٧٤)، ويدخل -فيه- نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَوَالِدَاهُ، وَمَن دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِنًا. فَذَكَرَ العَامَّ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ، وَسَبَقَهُم بالخَاصّ، فَتَكَرَّرَ ذِكْرُهُمْ. فَهُوَ دُعَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ جَمِيعِهِم، وَذَلِكَ يَعُمُّ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتَ(٧٥).

الإيجازُ:

١- إيْجَازُ القِصَر:

وَهُوَ تأديَةُ المَعَاني الكَثيرَة بالألفَاظِ القَلِيلَة، نَحْوُ قَوْلِه -تَعَالَى-: ((وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)) (الفرقان:٧٢)، فَفِي الآيَة الكَرِيمَة إِيْجَازٌ للكَثِير من المَعَاني، فاللَّغْوُ كُلُّ سَقَطٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَيَدْخُلُ فيه الغِنَاءُ وَاللَّهْوُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا قَارَبَهُ، وَيَدْخُلُ فيه سَفَهُ الْمُشْرِكِينَ، وَأَذَاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرُ النِّسَاء، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْكَر. فإذَا سَمِعُوا مِنَ الْكُفَّارِ الشَّتْمَ وَالْأَذَى أَعْرَضُوا وَصَفَحُوا، وَيرى الْحَسَنُ وَالْكَلْبِيُّ أَنَّ اللَّغْوَ الْمَعَاصِي كُلَّهَا. وَ(كِرَامًا) بمَعْنَى مُعْرِضِينَ مُنْكِرِينَ لَا يَرْتَضُونَهُ، وَلَا يُجَالِسُونَ أَهْلَهُ. أَيْ: مَرُّوا مَرَّ الْكِرَام الَّذِينَ لَا يَدْخُلُونَ في الْبَاطِلِ، ولا يَخُوضُونَ في مَا لا جَدْوَى مِنْهُ. وَتَكَرَّمَ الرجلُ عَمَّا يَشِينُهُ، أَيْ: تَنَزَّهَ، وَأَكْرَمَ نَفْسَهُ عَنْهُ(٧٦).

فَعِبَادُ الرَّحمنِ يَمُرُّونَ وَهُمْ فِي حَالِ كَرَامَة، غَيْرَ مُشَارِكِينَ فِي اللَّغْوِ، بِخِلَافِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِأَصْحَابِ اللَّغْوِ أَنِسُوا بِهِمْ، وَوَقَفُوا عَلَيْهِمْ، وَشَارَكُوهُمْ فِي لَغْوِهِمْ. فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ كَانُوا فِي غَيْرِ حَالِ كَرَامَة.

فَإِذَا مَرَّ أَصحابُ الْمُرُوءَة عَلَى أَصْحَابِ اللَّغْوِ تَنَزَّهُوا عَنْ مُشَارَكَتِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا نَادِيَهُمْ، فَكَانُوا فِي حَالِ كَرَامَة، وَهَذَا ثَنَاءٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَرَفُّعِهِمْ عمّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّة(٧٧)، قال -تَعَالَى- ((وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)) (القصص:٥٥).

وكذلك في قَوْلِه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-)) :كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)) (إبراهيم:١) إيجاز بلاغي، فَالظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ تَعْنِي الكَثِيرَ، فإنَّ وَرَاءَ هَذَا التَّعْبِيرِ الْقَصِيرِ آفَاقًا بَعِيدَةً لِحَقَائِقَ ضَخْمَة عَمِيقَة فِي عَالَمِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَفِي عَالَمِ الْحَيَاةِ وَالْوَاقِعِ، لَا يَبْلُغُهَا التَّعْبِيرُ الْبَشَرِيُّ، فَالْوَهْمُ وَالْخُرَافَةُ ظُلُمَاتٌ، وَ الْحَيْرَةُ فِي تِيهِ الْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقَة ظُلُمَاتٌ، واضْطِرَابُ التَّصَوُّرَاتِ وَالْقِيَمِ وَالْمَوَازِينِ ظُلُمَاتٌ، فالمعنى: لِتُخْرِجَ الْبَشَرِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ كُلِّهَا إِلَى النُّورِ. النُّورِ الَّذِي يَكْشِفُ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ فِي عَالَمِ الضَّمِيرِ وَفِي دُنْيَا التَّفْكِيرِ، ثُمَّ يَكْشِفُهَا فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ وَالْقِيَمِ وَالْأَوْضَاعِ وَالتَّقَالِيدِ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ نُورٌ تُشْرِقُ بِهِ النَّفْسُ، فَتَرَى الطَّرِيقَ وَاضِحَةً إِلَى اللَّهِ، لَا يَشُوبُهَا غَبَشٌ وَلَا يَحْجُبُهَا ضَبَابٌ. فهو نُورٌ تُشْرِقُ بِهِ الْحَيَاةُ. فَإِذَا النَّاسُ كُلُّهُمْ عِبَادٌ

مُتَسَاوُونَ(٧٨).

وكذلك في قوله –تعالى–: ((بِإِذْنِ رَبِّهِمْ))، إيجازٌ، "فَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَلَيْسَ مِنْ وَظِيفَتِهِ إِلَّا الْبَيَانُ. أَمَّا إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، فَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَفْقَ سُنَّتِهِ الَّتِي ارْتَضَتْهَا مَشِيئَتُهُ، وَمَا الرَّسُولُ إِلَّا رَسُولٌ"(٧٩).

٢- الإيجاز بالحذف:

مِنْ جَمَالِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وإبداعِ نَظمِهَا، وسحرِ بَيَانِهَا، مَيْلُهَا إلى الإيجَازِ؛ لما للعَقلِ العَرَبِيِّ من فطنَةٍ وذكاءٍ وحاضرِ بَديهَةٍ، فالحَذْفُ "بابٌ دقيقُ المَسلَك، لَطيفُ المَأخَذِ، عَجيبُ الأمْرِ، شَبيهٌ بالسِّحرِ، فإنَّك تَرَى به تَرْكَ الذِّكرِ أفصحَ من الذِّكرِ، والصَّمتَ عن الإفادةِ أزيدَ إفادةً، وتَجِدُكَ أنطقَ ما تكُونُ إذا لم تَنطِقْ، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لمْ تَبِنْ"(٨٠).

نَجِدُ فِي قَوْلِه – تَعَالَى–: ((وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا))(النحل:٦٧)، إيجازٌ بالحَذْف، فَالمُرَادُ: (ولكُمْ عِبْرَةٌ فيما نَسقيكُمْ ونَرزُقُكُم من ثَمَرَاتِ النَّخيلِ والأعنابِ)، وكذلكَ الضّميرُ في (مِنْهُ) عائدٌ إلى (ما) مَحذُوفة، أي: ما تتَّخِذُونَ منهُ سكرا ورِزْقًا حَسَنًا(٨١)، وقد حُذِفَ الاسمُ (ما)؛ لِدَلالَة (مِنْ) عليه؛ لأنَّ (من) تَدخُلُ –في الكلام– مُبَعِّضَةً، فاستُغْنِيَ بدَلالتِها، وبمعرفة السّامعينَ بما يَقْتَضي من ذِكْرِ الاسم مَعَهَا(٨٢).

إنَّ وُجُودَ (من) في الكلام دليلٌ عَلَى تقديرِ فعلٍ يَدُلُّ عَليه الفعلُ المَذْكُورُ في الجُمْلَة السَّابقَة، وهو (نسقيكم)، والتّقدير: (ونَسقيكُم من ثَمَرَاتِ النّخيلِ والأعنَاب)، وليسَ مُتَعَلِّقًا بـ(تتَّخذون)، فإنَّ نَظْمَ الكلام يَدُلُّ عَلَى قصدِ المُتكلِّم، ولا يَصحُّ جَعْلُهُ مُتَعَلِّقًا بـ(تتَّخذون) مقدَّمًا عَليه؛ لأنَّهُ يُبْعِدُ المعنَى عن الامْتنَانِ بلُطْفِ اللّه – تَعَالَى– إذْ جَعَلَ نَفْسَهُ – سُبْحَانَهُ– السّاقِيَ للنّاس، وهذا عطفٌ –منهُ– عَلَى منّة؛ لأنَّ (نَسْقِيكُمْ) وَقَعَ بيانًا لجُمْلة ((وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً))(النحل:٦٦)، ومفادُ الفعلِ (نَسقيكُم) مفادُ الامْتنَانِ؛ لأنَّ السّقيَ مَزِيَّةٌ، والعبرَتَانِ في السّقي والمُنَاسَبَة أنَّ كلتَيهِما ماءٌ، وأنَّ كلتَيهِمَا يُضْغَطُ باليَد، وقد أَطْلَقَ العَرَبُ الحلبَ عَلَى عَصرِ الخمرِ والنّبيذِ(٨٣).

وهُنَاكَ حذفٌ في قَوْلِه – تَعَالَى–: ((وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ))(الرعد:٤)، والمعنى: وفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وغيرُ مُتَجَاوِرات؛ وذلكَ عَلَى نَحْوِ قَوْلِه – تَعَالَى–: ((سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ))(النحل:٨١)، والمعنى: وتقيكُمُ البَرْدَ، ثُمَّ حُذِفَ؛ لِعِلْمِ السّامعِ، والمُتَجَاوِرَاتُ هي المُدُنُ وما كانَ عَامِرًا، وغيرُ المُتَجَاورات هي الصّحارى وما كانَ غيرَ عامرٍ(٨٤).

فَلَيْسَ وَصْفُ القِطَعِ بمتجاورات مَقصُودًا بالذّات في هذا المَقام؟ إذ ليسَ هُوَ محلُّ العبرة في هذا المَقام، بل المقصُودُ وَصفُ مَحذُوف دَلَّ عليه السّيَاقُ تقديرُهُ: مُختلفاتُ الألوانِ والمَنَابت، وهو الَّذِي دَلَّ عليهِ قولُهُ – سُبْحَانَهُ–: ((وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ))(الرعد:٥)، وإنَّمَا وُصِفَتْ بِمُتَجَاوِرَات؛ لأنَّ اختلافَ الألوانِ والمَنَابتِ مَعَ التّجَاوُرِ أشدُّ دَلالةً عَلَى القُدْرَةِ العظيمة(٨٥)، وهو ما يَتّسِقُ مَعَ قولِه –تَعَالَى– ((وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ))(فاطر:٢٧).

وفي قَوْلِه –تَعَالَى–: ((قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ))(الأنعام: ٩٩)، اختصارٌ مَعنَاهُ: ومن النّخلِ ما قنوانُهَا دانيةٌ، ومنها ما هي بعيدةٌ، فاكتفى بذكرِ القريبة عن البعيدة؛ لسَبْقِهِ إلى الأفهام(٨٦)؛ لأنَّ الغَرَضَ من الآيَة ذِكْرُ القُدرَة، والامْتنَانُ بالنّعمَة، والامْتنَانُ بما يَقْرُبُ مُتَنَاوَلُهُ أكثرُ(٨٧).

وفي قَوْلِه – جَلَّ وَعَلا– ((كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ))(القمر:٢٠) إيجازٌ بالحذف، فَمَعْنَى الكَلَام: (فَيَتْرُكُهُمْ كأنَّهُمْ أَعْجَازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ)، فَتَرَكَ ذِكْرَ الفعْلِ (فَيَتْرُكُهُم)؛ استغناءً بدَلالة الكلام عليه(٨٨).

وقد تَرَكَ ذِكْرَ معمولِ (يَتَفَكَّرُونَ) في قَوْلِه –جَلَّ وَعَلا–: ((لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ))(البقرة: ٢٦٦)، أي: كي تَتَفَكَّرُونَ في زَوَالِ الدّنيَا وَفَنَائِهَا، وإقبالِ الآخرَة وَبَقَائِهَا"(٨٩).

وهذا إيجَازٌ بَليغٌ، وهو ما عَهِدْنَاهُ في كتابِ اللّه –جَلَّ وَعَلا– ومُحْكَم قوله، وَقَد اكتُفِي بِذِكرِ الصّفَةِ إيجازًا؛ لِمَعْرِفَةِ المَوْصُوف في قَوْلِه تَعَالَى: ((وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ))(الأنعام:١٤١)، أي: جَنَّاتٌ غيرُ مَعْرُوشَات؛ إذ دَلَّ عَلَيْهَا ما قَبلَهَا .

وقد استُغْنِيَ عن ذِكْرِ المُبتَدَأ في قَوْلِه –تَعَالَى–: ((مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ))(الحشر:٥)، أي: فهو بإذن اللّه.

ولم يذكُرْ جوابَ الشّرط؛ لدلالة ما قَبْلَهُ عليه في قَوْلِه –سُبْحَانَهُ–: ((كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ))(الأنعام:١٤١)، والتّقديرُ: إذا أثمَرَ

فَكُلُوا من ثَمَرِه.

وكذلك لم يَذْكُرْ معمولَ فعلِ الإسرافِ في قَوْلِه – تَعَالَى-: ((وَلَا تُسْرِفُوا)) (الأنعام:١٤١)، أي: ولا تُسرِفُوا في الأكل، وفي الإنفاق.

وفي قَوْلِه –تَعَالَى-: ((فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)) (الحَاقَّة:٧) إيجَازٌ بالحَذْف؛ إذ إنَّ المَعْنَى: فَتَرَى -يا مُحَمَّدُ- قَوْمَ عَادٍ في تِلْكَ اللَّيالي السبعِ والأيَّامِ الثَّمانيَةِ الحُسُومِ صَرْعَى، كَأَنَّهُم أُصُولُ نَخْلٍ قَدْ خَوَتْ(٩٠).

الخَاتِمَةُ

١- وَرَدَ التَّشْبِيهُ المُفَصَّلُ في تَشْبِيهِ قَوْمِ عَادٍ بأَعْجَازِ النَّخْلِ المُنْقَعِرِ تارةً، والخَاوِيَةِ تَارةً أُخْرَى؛ إذْ ذُكِرَتْ أَرْكَانُ التَّشْبِيهِ الأربَعَة (الأدَاةُ والمُشَبَّهُ والمُشَبَّهُ به وَوَجْهُ الشَّبَه)، وفي اختلافِ وجهِ الشَّبَه في الآيتين إعجَازٌ بَلَاغِيٌّ، يُنَاسِبُ حَالَ المُشَبَّهِ بهم، ولا يصْلُحُ أحَدُهُمَا في مَكَانِ الآخَرِ، فالأوَّلُ يُصَوِّرُ مَصْرَعَ قَوْمِ عادٍ في بِدَايَةِ إرسَالِ الرِّيحِ، والثَّاني يُصَوِّرُهُم بعدَ مُضِيِّ سَبْعِ ليالٍ وثَمَانيَةِ أيَّامٍ حُسُوم.

٢- تَجَلَّى التَّشْبِيهُ المُجْمَلُ، في تَشْبِيهِ القَمَرِ في آخِرِ مَرَاحِلِهِ بالعُرجُونِ القَدِيمِ، مِن دُونِ ذِكْرِ وَجْهِ الشَّبَه، مُكتَفِيًا بِوَصْفِهِ بالقِدَم، دِلالةً على الدِّقَّة، والانْحِنَاء والاصْفِرَار.

٣- وُظِّفَ التَّشْبِيهُ المُرَكَّبُ التَّمْثِيليُّ تَوْظِيفًا بَدِيعًا في تَصوير حَالِ المُنْفِق، وَمَا يَنَالُهُ مِنْ إكْرَام؛ إذ شُبِّهَ مَشْهَدٌ تَمْثِيليٌّ بآخَرَ، وَوَجْهُ الشَّبَه في ذَلكَ صُوَرٌ مُنْتَزَعَةٌ من أشياءَ مُتَعَدِّدَة. فَشُبِّهَ مَنْ أنْفَقَ في سَبِيلِ اللَّه، وَلَمْ يُلْحِقْ صَدَقَتَهُ مَنًّا وَلا أذًى، بِمَنْ بَذَرَ بَذْرَةً، فأنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، في كُلٍّ منْهَا مِئَةُ حَبَّة.

٤- ضُمِّنَ تَشْبِيهُ حالِ من كَفر باللَّه، وعَصَا بَعْدَ طَاعَتِه وَمَاتَ عَلى مَعْصِيَتِه نَاقِضًا إيْمَانَهُ، وَعَدَمُ انْتِفَاعِهِ بِعَمَلِهِ يَوْمَ القِيَامَة، بِمَن اغتَنَى وعَمَّرَ بُستَانًا من نَخيلٍ وأعنَاب، حَتَّى إذا كَبُرَ وعَجَزَ، أَحْرَقَ الإعْصَارُ جَنَّتَهُ، وَخَسِرَ.

٥- اسْتُعِيرَ الظُّلْمُ لِلضَّلالِ، وَالنُّورُ لِلهُدَى، فَكَأَنَّ مَنْ يَهْتَدِي بَعْدَ كُفْرِهِ وَضَلَالِهِ قَدْ خَرَجَ مِنَ الظَّلَامِ إلى النُّوْرِ. وَقَدْ صُرِّحَ بِذِكْرِ المُسْتَعَارِ له من دون المُسْتَعَار، وهو مَا يُعْرَفُ بالاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّة.

٦-شَبَّهَ الشَّيْبَ بشُوَاظٍ من النَّارِ في بَيَاضِه وَإنَارَتِه وَانْتِشَارِه في الشَّعر، ثُمَّ أُخرِجَت مَخْرَجَ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّة؛ إذ حُذِفَ المُشَبَّهُ به، مَعَ ذِكْرِ لازمة من لوازمه وَهِيَ صفة الاشتعال، وهذه مِنْ أَبْدَعِ الاسْتِعَارَاتِ وَأَحْسَنِهَا في كَلَامِ العَرَب. فقد أُسْنِدَ الاشْتِعَالُ إلَى الرَّأْس، وَأُخْرِجَ الشَّيْبُ تَمْيِيزا مُحَوَّلا عَنِ الفَاعِل، أَي: انْتَشَرَ الشَّيْبُ في شَعْرِهِ كَمَا يَنْتَشِرُ شُعَاعُ النَّارِ في الحَطَب.

٧- مُثِّلَتْ هَيْئَةُ اجْتِمَاعِ المُؤمنينَ وَالْتِفَافِهِمْ عَلَى دِينِ اللَّه وَالتمسك بوَصَايَاهُ وَحفظ عُهُودِهِ بِهَيْئَةِ اسْتِمْسَاكِ جَمَاعَةٍ بِحَبْلٍ قد أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ؛ لينقذهم مِنْ غَرَقٍ أَوْ سُقُوط، إذ اسْتُعِيرَ الحَبْلُ للدِّيْنِ وَالقُرْآنِ، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ، وَفي إضَافَةُ الحَبْلِ إِلَى اللَّه –سُبْحَانَهُ- قَرِينَةُ هَذَا التَّمْثِيلِ. وَكَلِمَةُ (جَمِيعًا)، رَجَّحَتْ إِرَادَةَ التَّمْثِيلِ؛ فالمَقْصُودُ الْأَمْرُ بِاعْتِصَامِ الْأُمَّةِ مجتمعة؛ واجتِمَاعِهِمْ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ.

٨- في وَصْفِ الجَنَّات بالمَعْرُوشَات مَجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ إذْ أُسنِدَ الوَصْفُ إلَى ما لا يَصْلُحُ لَهُ، فَلَيْسَ الجَنَّاتُ بالمَعْرُوشَات، وإنَّمَا هِيَ مَعْرُوشٌ فِيهَا، وَالمَعْرُوشُ أشْجَارُهَا، وكَذلكَ غيرُ المَعرُوشَات، وهَذا مِنْ بَلاغَة القُرآن وَحُسْنِ نَظْمه. وكذلك لا يَصِحُّ سُؤَالُ القَرْيَة، أو العِيْرُ؛ لأنَّها لا تُجِيبُ، وإنَّمَا المُرَادُ: وَاسْأَلِ النَّاس. وَقَد وُصِفَ الحِجَابُ بالمَسْتُور –وَهُوَ سَاتِرٌ- تَجَوُّزٌ. وَيُعَدُّ هَذَا الضَّربُ مِنَ المَجَازِ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ البَلاغَة؛ إذ تَتَجَلَّى –فِيهِ- فِطْنَةُ العَرَبِيِّ، وَحَذَاقَتُهُ، وَسَلَامَةُ ذَوْقِه، فَيُسْنَدُ الفِعْلُ أَو الوَصْفُ إلى غَيْرِ المُسْنَدِ إلَيْهِ الحَقِيْقِيِّ، لِغَايَةٍ بَلَاغِيَّةٍ في الكَلَام.

٩- ورد –في الآيَات الكريمة- إطنَابٌ بالبسط، فَفُصِّل في القَوْلِ؛ لأغرَاض بلاغية، وآخر بالزيادة، بذِكْرِ العَامِّ بَعْدَ الخَاصِّ، أو الخاصِّ بَعْدَ العَامِّ، في مَوَاضِعَ كَثِيرَة؛ لبَيَانِ عُلُوِّ شَأْنِ المَذْكُورِ وَتَمْيِيزِه، والاهتِمَامِ بِه، فَذُكِرَ النَّخِيْلُ مُنْفَرِدًا، بَعْدَ أنْ ضُمِّنَ بِذِكْرِ الفَاكِهَةِ. وكذلك أُفْرِدَ ذِكْرُ جِبْرِيْلَ بَعْدَ أنْ ضُمِّنَ بِذِكْرِ الملائكة، وذُكِرَت الصلاةُ الوسطى بعد ذكر الصلوات وهي داخلة فيها.

١٠- وَرَدَ في الآيَات الكَرِيْمَة إيْجَازٌ بالقِصَر؛ إذ أشَارَت الألفَاظُ القَلِيلَةُ إلى الكَثِير من المَعَاني، وَهُوَ مِنْ مُمَيِّزَات العَرَبِيَّة، وآخر، بالحَذْف، فَاسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ أَجْزَاءٍ مِنَ الكَلَام؛ لأغراضٍ بَلاغِيَّة؛ مِمَّا زَادَ النَّصَّ رَصَانَةً وَسُمُوًّا وجَمَالًا، فَاسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ فِعْلٍ، أوْ مُبْتَدَأ، أوْ

مَوْصُوفٍ، أوْ شِبْهِ جُمْلَةٍ، أوْ مُنَادًى.

مَضَانُّ البَحْثِ

- القُرْآن الكَرِيمُ
- الإتْقَانُ فِي عُلُومِ القُرْآنِ، لِعَبدِ الرَّحمَنِ بنِ الكَمَالِ المَشْهُورُ بِجَلَالِ الدّينِ السُّيُوطِيِّ (ت٩١١هـ)، تحـ: مُحَمَّد أبِي الفَضْلِ إبرَاهِيم، المَكْتَبَةُ العَصْرِيَّةُ، صَيْدَا- بَيْرُوت، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
- تَفْسِيرُ ابن كَثِير، إسمَاعِيل بن عُمَرَ بن كَثِير القُرَشِيُّ الدِّمشقِيُّ (ت٧٧٤هـ)، دَارُ طِيبَةَ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- تَفْسِيرُ التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ، لِسَمَاحَة الشَّيْخ مُحَمَّد الطّاهِر ابن عاشُور (ت١٣٩٣هـ)، دَارُ سَحْنُون للنَّشرِ والتّوزِيع، تُونُس.
- التَّفْسِيرُ الكَبِيرُ المُسَمَّى البَحْرَ المُحِيطَ، لأبِي حَيَّان مُحَمَّدِ بنِ يُوسُفَ الأندلُسِيِّ (ت٧٤٥هـ)، تحـ: عبد الرَّزَّاق المَهْدِيّ، دَارُ إحياءِ التُّراثِ العربيِّ، ط١، بَيرُوت- لبنان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- تَفْسِيرُ المَنَار، مُحَمَّد رَشِيد رِضا (ت١٣٥٤هـ)، الهَيئَةُ المصريَّةُ للكتاب، مصر، ١٩٩٠م.
- الدّرُّ المَصُونُ فِي علمِ الكِتابِ المَكْنُونِ، لأحْمَدَ بنِ يُوسُفَ المعروفِ بالسَّمِينِ الحَلَبِيّ (ت ٧٥٦هـ)، تحـ: د. أحمد مُحَمَّد الخرّاط، دَارُ القلم، دمشق.
- دَلائِلُ الإعْجَازِ، لأبِي بكرٍ عبدِ القاهِرِ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ مُحَمَّدٍ الجرجَانيِّ (ت٤٧٤،٤٧١هـ)، تحـ: أبو فهر، ومحمود مُحَمَّد شاكر، مط: المدنيّ، المؤسسة السعوديّة بمصر، شركة القدس للنشر والتّوزيع، القاهرة.
- جَامِعُ البَيَانِ عَن تَأْوِيلِ القُرْآنِ، المَعْرُوفُ بتَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ، لأبِي جَعْفَرَ مُحَمَّدِ بنِ جَرِيرَ الطَّبَرِيِّ (٣١٠هـ)، تحـ: مُحَمَّد مَحمُود شاكر، دَارُ المعارف، مصر.
- الجَامِع لأحْكَام القُرْآن، المَعرُوفُ بتَفْسِيرِ القُرطُبِيِّ، لأبِي عبدِ الله مُحَمَّد بن أحْمَد الأنصارِيِّ القُرطُبِيِّ (ت٦٧١هـ)، دَارُ الفِكرِ للطِّبَاعَةِ والنَّشرِ والتّوزِيع، بَيرُوت.
- عِلْمُ البَيَانِ دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِمَسَائِلِ البَيَانِ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- فَتْحُ القَدِيرِ الجَامِعِ بَينَ فَنَيِّ الرِّوَايَةِ والدِّرَايَةِ مِن عِلمِ التَّفْسِيرِ، لِمُحَمَّدِ بنِ عليِّ بنِ مُحَمَّدٍ الشَوكَانِيِّ (١٢٥٠هـ)، تحـ: يُوسُف الغوش، دَارُ المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٤م.
- فِي ظِلالِ القُرْآنِ، سيِّد قُطْب إبراهيم حُسَين الشَّاربيِّ (ت١٣٨٥هـ)، دَارُ الشُّرُوقِ، القاهرة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ط٣٢.
- الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوَامِضِ التّنزِيلِ وَعُيُونِ الأقَاوِيلِ فِي وُجُوهِ التَّأوِيلِ، لأبِي القَاسِمِ مَحمُود بنِ عُمَرَ الزَّمَخْشَرِيِّ (ت٥٣٨هـ)، مَكْتَبَةُ العبيكان، الرِّياض، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
- المُحرّر الوَجِيز فِي تَفْسِيرُ الكتابِ العَزِيزِ المُسَمَّى تَفْسِيرَ ابنِ عطيَّة، عبد الحق مُحَمَّد بن عطيَّة الأندلُسِيِّ (ت٥٤١هـ)، طَبعةُ وَزَارةِ الأوقافِ القَطَرِيَّة، الدَّوحَة- قَطَر، ط٢، ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧ م.
- مَدَارِكُ التّنزِيلِ وَحَقَائِقُ التّأوِيلِ المُسَمَّى تَفْسِيرَ النَّسفِيِّ، لأبِي البَرَكَاتِ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ محمود النَّسفيِّ (ت١١٤٢هـ)، تحـ: يُوسُف عليّ بديوي، ومُحي الدّين ديب، دَارُ الكلم الطّيب، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، ط١.
- مَعَالِمُ التَّنزِيلِ، المَعرُوفُ بتَفْسِيرِ البَغَوِيِّ، لمُحيِي السُّنَّةِ الحُسَينِ بنِ مَسْعُودٍ البَغَوِيِّ (ت٥١٦هـ)، تحـ: مُحَمَّدِ عبدِ الله، وعُثمانَ جُمُعَة، وسُلَيمَانَ مُسلم، دَارُ طيبَة للنَّشرِ والتَّوزِيع، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.
- من بَلَاغَة النَّظْمِ القُرْآنيِّ، دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ لِمَسَائِلِ المَعَانِي وَالبَيَانِ والبَدِيعِ فِي آيَاتِ الذِّكرِ الحَكِيم، للدّكتور بَسيُونِي عبد الفَتَّاح فيود، مُؤسَّسَة المُختَار للنَّشرِ والتَّوزِيع، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

الهوامش

(١) يُنْظَرُ: عِلْمُ البَيَانِ دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِمَسَائِلِ البَيَانِ: ٨٢.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١٢٩.

(٣) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ١٤٣٠.

(٤) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ١٩٥/٢٨.

(٥) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ١٤٣٠.

(٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٥٨٩/٢٢-٥٩٠.

(٧) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ : ٢٤٢/١٨.

(٨) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٤٢/١٨.

(٩) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ١١٩/٣٠.

(١٠) يُنْظَرُ: مِنْ بَلَاغَةِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ: ٢٠، ٢٤١.

(١١) يُنْظَرُ: مِنْ بَلَاغَةُ النَّظْمِ القُرْآنَيِّ: ٨٧.

(١٢) يُنْظَرُ: من بلاغة النظم القرآني: ٢٠.

(١٣) الحَاقَّةُ: ١-١١.

(١٤) يُنْظَرُ: من بلاغة النظم القرآني: ٢٤١.

(١٥) يُنْظَرُ: من بلاغة النظم القرآني: ٢٤١.

(١٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٣١/١٥، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ١٢٢٥.

(١٧) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّافِ:١٧٩/٥.

(١٨) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٥٧٩/٦.

(١٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٣١/١٥، وتَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٥٧٩/٦، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ١٢٢٥.

(٢٠) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٩٠/٣-٢٩١، وتَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٥٤٥/٥-٥٤٨، وتَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٢٩٦/١-٩٧.

(٢١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٢٩٧/١.

(٢٢) تَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ١/ ٣٢٥، ويُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٧٧/٣، وتَفْسِيرُ النَّسَفِيِّ: ٢١٧/١.

(٢٣) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ النَّسَفِيِّ: ٢١٧/١.

(٢٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٦٩٢/١.

(٢٥) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٧٧/٣، والتَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٤٢/٣.

(٢٦) دَلَائِلُ الإِعْجَازِ: ٦٧.

(٢٧) يُنْظَرُ: الإتقانُ في عُلُوم القُرْآن: ٣/ ١٣٤- ١٣٥.

(٢٨) يُنْظَرُ: في ظلال القرآن: ٢٠٨٦/٤.

(٢٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٥١/١٦، وتَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ٣٣٤/٤، والكَشَّافِ: ٣٦٠/٣، وتَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٤٧٦/٤.

(٣٠) في ظلال القرآن: ٢٠٨٦/٤.

(٣١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٩٥/٩، وتَفْسِيرُ ابن عَطِيَّة: ٢٢٠/٥، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٧٣٩.

(٣٢) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّافِ: ٧/٤، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٨٣.

(٣٣) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ:٧/١١، و وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٨٣.

(٣٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّافِ: ٧/٤.

(٣٥) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٥/٧.
(٣٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٧/١١، وتَفْسِيرُ النَّسَفِيِّ: ٢ /٣٢٧.
(٣٧) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٦٥/٧.
(٣٨) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٦/٧.
(٣٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٣٣٣/٥.
(٤٠) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٩٢/٢٥.
(٤١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٥١٤/٢-٥١٥، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٥٠٣
(٤٢) يُنْظَرُ: الدُّرُّ المَصُونُ: ٤٧٣/٥
(٤٣) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ المَنَارِ: ١٨٥/٩
(٤٤) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ١٢٣/١٠
(٤٥) يُنْظَرُ: الدُّرُّ المَصُون: ٤٧٣/٥.
(٤٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٢٠٦/١، والتَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ:٣٢/٤.
(٤٧) يُنْظَرُ: ابن كَثِيْر ٩٠/٢.
(٤٨) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ٢٣٦، و التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٣٢/٤.
(٤٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٢٠٦/١، والتَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٣٢/٤-٣٣.
(٥٠) دلائل الإعجاز: ٢٩٥.
(٥١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ١١٩/١٢.
(٥٢) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٢١٣/١٦، وتَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢١٥/٩، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٧١٠.
(٥٣) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢١٥/٩.
(٥٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٢١٣/١٦.
(٥٥) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢١٥/٩، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٧١٠.
(٥٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٤٥٧/١٧، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٢٦.
(٥٧) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٢٦.
(٥٨) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ١٦/ ١١٧- ١١٨.
(٥٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٤٥٧/١٧، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٢٦.
(٦٠) فَتْحُ القَدِيْرِ: ٨٢٦.
(٦١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٧٦/٤.
(٦٢) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٢٠٦/١٧- ٢٠٧.
(٦٣) يُنْظَرُ: البحر المحيط: ٤٥٢/٧.
(٦٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٣٣٣/٥، والتَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٩١.
(٦٥) التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٩٠- ٩١.
(٦٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الكَشَّاف: ٣٣٣/٥.
(٦٧) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ١٤٣٥.
(٦٨) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٤٩١/٧.
(٦٩) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٧٤/٢٣.

(٧٠) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ١٦٩/١٧.
(٧١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٧٥/٢٣.
(٧٢) يُنْظَرُ: البحر المحيط: ٤٠١/٦.
(٧٣) يُنْظَرُ: فَتْحُ القَدِيْرِ: ٧٧٦.
(٧٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ٢٣٥/٨.
(٧٥) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ ابن كَثِيْر: ٢٣٨/٨.
(٧٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ١٠٠/٦، وتَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٧٨/١٣، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ١٠٥١.
(٧٧) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٨٠/٢٠.
(٧٨) يُنْظَرُ: في ظِلَالِ القُرآنِ: ٢٠٨٦/٤- ٢٠٨٧.
(٧٩) في ظِلَالِ القُرآنِ: ٤/ ٢٠٨٧.
(٨٠) دَلَائِلُ الإِعْجَازِ: ١٤٦.
(٨١) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ٢٩/٥.
(٨٢) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٢٤١/١٧.
(٨٣) يُنْظَرُ: التَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٢٠٣/١٥.
(٨٤) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٤٦/٩-٢٤٧، وفَتْحُ القَدِيْرِ: ٧٢١.
(٨٥) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٤٧/٩، والتَّحْرِيْرُ وَالتَّنْوِيْرُ: ٨٧/٤.
(٨٦) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ البَغَوِيِّ: ١٧٣/٣.
(٨٧) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٥٥/٧.
(٨٨) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٥٨٩/٢٢.
(٨٩) تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ: ٢٩٢/٣.
(٩٠) يُنْظَرُ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٥٧٦/٢٣.